اشتراكيان.. ورجعيان

بقلم سلامه موسى

في النصف الاول من هذا القرن كان يغمر الجو الادبي البريطاني اربعة من الادباء كانوا اربع قوات تتجاذب وتتدافع . كان اثنان منهما اشتراكيين وكان اثنان رجعيين.

الاشتراكيان هما برنارد شو الذي ولد في ١٨٥٦ ومات في ١٩٥٠ . وهـ. ج. ويلز الذي ولد في ١٨٦٦ ومات في ١٩٤٦

والرجعيان هما جلبرت تشسترتون الذي ولد في ١٨٧٤ ومات في ١٩٣٦

وهيلير بيلوك الذي ولد في ١٨٧٠ ومات في ١٩٥٣

. . .

وكانوا جميعا اصدقاء على الرغم من حرب المبادىء التي لم يكن واحد منهم يرضى فيها بالمهادنة الموقتة . ولذلك لم تجر بينهم كلمة وقحة او سباب قذر من تلك الوقاحة او ذلك السباب اللذين للآسف عرفناهما في مصر بين «الادباء» . الا ما ندر وند من هـ . ج . ويلز الذي كان ينقلب انفعاله احيانا الى وقاحة عندما كانت تعوزه الحجة . وقد فعل ذلك مع برنارد شو وغيره . ثم حدثت ظروف جعلته يكتب الى شو يستسمحه فيما فرط منه في حقه .

وأحب هنا ان اكتب عن الرجعيين كما تفهم انجلترا معنى الرجعية في القرن العشرين . وكان هيلير بيلوك اعظم كاتب تصدى للدفاع عن مبادئها وأهدافها . بل هو حاول ان يرسم الخطوط التي يجب ان يبنى عليها مجتمع «عصري» له اسس من القرون الوسطى . بل اكاد اقول : من القرون المظلمة .

هذا الرجل خلاسي ، اي انه ينتمي الى عناصر انجليزية وفرنسية زودته بميزات وراثية خاصة . وقد ادى الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي ولكنه الف مؤلفاته باللغة الانجليزية . عرفته في لندن ورأيته يخطب بالانكليزية كأحسن انجليزي . غير انه كان يتحمس ويغضب ويتشاجر بأسلوب فرنسي . اي انه كان يزعق . حتى لاذكر ان آنسة انجليزية كانت ترافقني قالت لي بعد ان خرجنا انها لا تحب ان يكون هذا الرجل زوجها .

كان بيلوك رجعيا من حيث انه كان كاثوليكيا يؤمن بانه ليس هناك على هذا الكوكب ديانة تستحق الحب والاحترام وايمان الناس بها ، جميع الناس ، سوى المسيحية الكاثوليكية . وان عرش البابا في روما يجب ان يكون العرش الذي يسود الدنيا .

فاذا قلت له ان هناك الاسلام او البوذية او اليهودية او غيرها من الاديان والمذاهب اجاب في لباقة باننا يجب ان نحاربها وان نعمم المذهب الكاثوليكي بحرب دينية صليبية.

وله كلمة عن الجزائر قالها او قاءها قبل نحو ثلاثين سنة هي ، « اننا ، اي الاوروبيين ، قد اكتسبناها من المسلمين. » كلمات عجيبة من رجل عاش في عصرنا وفكر بطريقة الصليبيين ايام صلاح الدين .

وكان يصلي ويصوم كأحسن المؤمنين . اجل ، ويقول بالاستعمار . أليس يمكن الاستعمار ان يكون وسيلة ايضا لنشر المذهب الكاثوليكي بين غير المؤمنين به ، كما حدث مثلا في الجزائر ؟ أو على الاقل ، أليس يمكن تعميرقطر الجزائر بالمؤمنين الكاثوليك بدلا من المسلمين ؟

كان يعيش في لندن يقطن بيتا مجهزا بأدوات القرن العشرين ولكن افكاره وعقائده واحساساته كانت في القرون الوسطى .

وقد دفعته حماسته الدينية الى ان يحج الى رومه . ولكن أي حج ؟

انه رفض ان يستقل القطار او السيارة، ولم تكن الطائرات قد ظهرت . وانما استقل قدميه في ١٩١٠ فمشى من باريس ساعيا كما كان يفعل الحجاج الى رومة بل الى القدس قبل الف سنة . وكتابه « الطريق الى رومة » هو وصف لهذا الحج يصف فيه الارض والناس ، والحيوان والنبات، والمدينة والريف في فرنسا وايطاليا . كتاب عظيم . قرأته وانا خلو من الاحساس الديني الذي انبعث به المؤلف .

كان يكره الثورة الفرنسية . والف عن ابطالها نحو اربعة او خمسة كتب يشرح فيها فظائعهم . ومرتكز كراهته لهذه الثورة انها نقلت الشعب الفرنسي من النظام الاقطاعي الى النظام البورجوازي اي نظام رأس المال ، نظام التجارة والصناعة الحرتين . فهو يقول ان العامل الزراعي كان قبل الثورة مكفول الرزق لان الامير او النبيل كان يتكفل له بذلك . أي ان العامل كان محدود الحرية في اختيار مهنته بل محدود الاقامة . ولكن الامير او النبيل الذي كان يستخدمه كان ايضا محدود الحرية لانه لم يكن ليمكنه اخراجه . وكان لذلك يتكفل بعيشه هو وعائلته . اما الان فالعامل في المصنع او المزرعة يمكن ان يقع في التعطل وليس من ينقذه من الموت جوعا .

(وكانت هذه الحجج تقال قبل الاصلاحات الاجتماعية العديدة التي قامت بها الحكومات الاوربية كالاعانات وقت التعطل . الخ)

ولكن ما هو برنامجه للاصلاح ؟

لنترك البرنامج الان ولنخطف لمحة من شريكه في الرجعية

جلبرت تشسترتون

كلاهما متعصب للمذهب الكاثوليكي ولكن بيلوك شرس في حين ان تشسترتون وديع رفيق يؤثر الكلمة الرخيمة على الكلمة العنيفة .

كنت عندما تتأمل تشسترتون تحس كأنك أمام فيل او دولفين . فقد كان سمينا يكاد يكون كرويا . ولكن النكات كانت تتفقأ على لسانه كما كان اسلوبه يتألف من المتناقضات او من المعاني التي يبرز تناقضها في براعة ذهنية عجيبة. وكان مع رجعيته ينصف خصمه . فانه الف حوالي ١٩١٠ كتابا في نقد الافكار التي يدعو اليها برنارد شو يعد تحفة بين الكتب هاجم فيه برنارد شو هجوما قويا ولكن بلا عنف او شراسة . ما زلت اذكر قوله عنه ، اي عن شو ، انه مخلص كل الاخلاص في جميع ما يفوه به من آراء ولكن هذه الاراء لو عرضت على محكمة في القرون الوسطى لكان جزاؤه الاحراق علنا في احد الميادين العامة بتهمة الهرطقة (اي الزندقة)

كان برنارد شو نحيفا وكان جلبرت تشسترتون سمينا. تلاقيا مصادفة في احد الشوارع في لندن فابتدره تشسترتون قائلا : لو أن احد الغرباء تأملك لظن ان لندن تعاني مجاعة . فقال برناردشو : ولو ان احد الغرباء تأملك لظن انك انت السبب لهذه المجاعة !

كانت هذه الفكاهات لازمة من لوازم الاديبين تخفف من حدة الخصومة المذهبية بينهما .

لقد حج هيلير بيلوك الى رومة ساعيا على قدميه وامضى في ذلك نحو ثلاثة شهور . وجلبرت تشسترتون حج الى القدس ولكن ليس ساعيا على قدميه اذ ان هذا المجهود لم يكن ممكنا مع وفرة ما كان يحمل من شحم ولحم . وهذا الى بعد المشقة

كلاهما رجعي . ولكن لماذا ؟

ان ظلاما كثيفا يحجبهما عن رؤية الحضارة العصرية لا يمكن تفسيره بان هذه الحضارة قد دفعت المباراة الاقتصادية الى حد المزاحمة القاتلة . ذلك اننا مع التسليم بأن هذه المزاحمة كثيرا ما تكون قاتلة ، وانها هي علة آلامنا ، وانها قد بالغت من الروح الاناني ، بل الحيواني ، في الانسان ، مع التسليم بكل هذا ما زلنا نستغرب اللجوء في الحل لمشكلاتها الى القرون الوسطى بدلا من التسليم بان الحل الصحيح او العلاج الناجع ينحصران في وضع التعاون مكان المباراة ، اي في الاشتراكية التي يقول بها شو ويلز .

ولكن هيلير بيلوك وجلبرت تشسترتون لا يسلمان بالاشتراكية . وهما يجدان فيها عبودية جديدة

والتفسير الصحيح لموقفهما الرجعي هذا هو كراهتهما للعلم هذا العلم الذي زعزع الايمان بالمذهب الكاثوليكي ، بل كافحه ولا يزال يكافحه . ولذلك نجد ان تشسترتون يرفض التقدم خطوة واحدة نحو التسليم بالعلم . حتى لقد كتب ذات مرة يسخر من اولئك الذين يؤمنون بداروين الذي اعتمد في نظريته في التطور على مشاهداته عن الكلاب والحمام والخراف . وان مثل هذا المذهب لا يمكن ان نؤمن به ونرفض قصص التوراة (عن آدم وحواء) في اصل البشر .

وهو ، بل هما ، تشسترتون وبيلوك ، يرتدان الى القرون الوسطى كما لو كانت شاطيء الامان حين كان البابا والكنيسة يسيطران على الحياة الاوروبية . ثم يرتدان ايضا الى نظم الاقتصاد التي كانت شائعة وقتئذ بحكم التناسق الفكري . وهنا اذن برنامجهما

الكراهة بل البغض للعلم والصناعة والتشنيع على الحضارة العصرية لانها ازالت المالك الصغير بان احالته الى عامل فقير بل معدم . وزال بذلك التكافل الاجتماعي الذي كان سائدا في القرون الوسطى . وكان اعظم الوسائل لهذا التكافل نظام الطوائف اي ما يسميه الانكليز جايلد .

هذا النظام كنا نحن نعرفه الى ايام اسماعيل الذي الغاه. وكان لكل صناعة «طائفة» لها اعضاء ورؤساء . العضو يدخل «صبيا» فيتعلم ثم يصير عاملا . والطائفة برؤسائها واعضائها تقرر الاجور للعمال والاثمان للجمهور والضرائب للدولة . ولا يجوز لاحد ان ينضم اليها الا بعد اذن رؤساء النقابة كما لا يجوز اخراج احد منها الا بمحاكمة .

والذي قتل هذا النظام في اوربا هو المخترعات العديدة الجديدة التي زادت الانتاج فجذبت اعضاء الطوائف ومزقت

صدر حديثا : عن منشورات مجلة شعر

نهر الرماد

خليل حاوي

قصيدة في ثلاثة عشر نشيدا

الثمن ليرتان — تباع في جميع المكتبات

منظماتهم . ويريدنا هذان الكاتبان الرجعيان على ان«نرجع» الى هذا النظام كأن الدنيا لا تسير الى الامام وانما الـــى الخلف . وبالطبع نرجع مع ذلك الى الايمان بالمذهـــب الكاثوليكي . وما أدرانا ! لعل هناك برنامجا خفيا آخـــر لحرب صليبية . ألم يكن كل شيء في القرون الوسطـــى حسنا ؟

قال برنارد شو عن هذين الكاتبين « ان كليهما يقدم لنا عصيدة من الطين ويزعم انها قصر منيف »

ان العقدة السيكولوجية عند تشسترون وبيلوك ، بل عند جميع الرجعيين ، تنحصر في ان العلم قد زعزع الايمان . والايمان ، بصرف النظر عن ماهية الدين ، هو صخرة اليقين والطمأنينة للنفس . واذن يجب ان يكره العلم وما جلبه من الحركة الصناعية ومن تحطيم التقاليد . بل ايضا تكره حرية المرأة وحرية العامل اللتان أحدثهما العصر الصناعي الجديد .

وليس شك ان العلم والصناعة والحرية قد اوجدت مشاكل ، بعضها قد قارب الفوضى ، في وقت ما فيما بين ١٧٨٠ و ١٩٥٠ . ولكن العلم الذي اوجدهـــا يستطيع ايضا ان يحلها دون الحاجة الى الهروب منه بالدعوة الى القرون الوسطى والعودة الى نظمها الملغاة .

. . .

وازاء هذين الكاتبين الرجعيين نجـد الكاتبين الاخرين اشتراكيين هما هـ.ج. ويلز وبرنارد شو . والاول علمي الذهن ينزع الى التفكير الفلسفي الاجتماعي . ولكن قدرته الادبية كبيرة بل اني حين اقرأ له قصة قصيرة احس كأني ازاء اديب تفوق مهارته وحذقه ما عند برنارد شو نفسه من هذه المهارة او هذا الحذق .

وكلاهما ملحد تفهم منه ان ايمانه هو الانسانية او البشرية (هيومانيزم) وان استعمل كلاهما كلمات اخرى غير هذه الكلمـــة .

ويختلف ويلز من شو من حيث اللهجة النشيطـــة العدوانية في مجابهة خصومه الرجعيين . فان شو حين يجادل يتلطف ويرق ويحاول . ولكن ويلز يصدم ويسب واحيانا يهاتر .

كتب ويلز في بداية حياتـه الادبية نحو ثلاث او اربع قصص يبين فيها قيمة الدين وانه المعتمد والسلوى والمنقذ . ثم الحد . فكتب في الطعن في الاديان الالهية سبابا . وصحيح ان كثيرا من هذا السباب قد نقله بحروفه من بعض الكتب الدينية . ولكن جمعه بالطريقة التي اتبعها ، ومع تجاهل الظروف التي كتب فيها ، يزيد من اثـــره الذي يجده القاريء في صفحات متفرقة من الكتب المقدسة .

كما أن هذا السباب او اللعان يمكن ان نتسامح فيه اذا لم نخرجه من ظروفه القديمة واذا لم نزنه بموازيننا العصرية

ولكن هنا لا ننسى ان ويلز حين عمد الى الالحاد انما كان قد تجاوز مرحلة الوطنية والقومية الى العالمية والانسانية . وذلك عقب الحرب الكبرى الاولى . فان هذه الحرب اطارت من عقله تلك الاوهام الوطنية التلميذية بشأن مجـــد الانجليز وعظمة الامبراطورية . وانتهى الى ان العالم يجب ان يكون دولة واحدة وشعوبه امة واحدة . وقد وجد فـي « عصبة الامم » حافزا يدعوه الى الترويج للفكرة العالمية :

امة واحدة ووطن واحد ودولة واحدة لكوكب الارض كلـــــه .

ومثل هذه الفكرة جديرة بان تبعث المفكر على ان يجحد جميع العوامل التي تفرق بين الامم وتشق الانسانية الـــى طوائف وتبعث الخلافات والاحقاد . وبكلمة اخرى وجـد ويلز في اديان العالم ومذاهبه التي تبلغ نحو العشرين هدفا يكافحه ويحـاول هدمه . لان هذه الاديان والمذاهب للتفكيك والشقاق وليست للتأليف والوفاق .

وتجري على هذا النسق مكافحتـه لتعدد اللغات . لان الوحدة العالميـــة تقتضي لغة موحدة

ونجده عقب الحرب الكبرى الاولى ايضا يؤلف كتابا ملهما باسم « تخطيط التاريخ » تبلغ صفحاته نحو الـــف . يعالج فيه التاريخ البشري كله باعتبـار انه ، اي التاريخ ، مجهود اشتركت فيه جميع الامم . وان الانسانية متضامنـة متكافلة في النهوض والاتجاه نحو الخير العام . واذا كانت بعض الامم قد عرقلت سير الحضـــارة فمرجع ذلك الـى الخرافات التي آمنوا بها والى رضاهم بحكم المستبدين والى اختيارهم ساستهم من الجهلاء .

كان يجد في الاسكندر المقدوني شابا احمق مغرورا .

وكان يجد في جلادستون سياسيا جاهلا .

وكان يسب العرش البريطاني ويقول بضرورة النظـــام الجمهوري .

وكان اشتراكيا .

والذي يجب الا ننساه ان اشتراكية برناردشو و هـ.ج. ويلز ليست عاطفية تنبع من احساس الرحمة بالفقراء وانما هي عقلية علمية تنهض على ان الانتاج يزيد كثيرا بحيث يلغي الفقر اذا عشنا في نظام اشتراكي . وايضا الى ان الارتقاء العام في الصحة والتعليم يحتاج الى نظم اشتراكية تتولى القيام به .

يقول برنارد شو ان الاعمال الاشتراكية لم يخل قط منها

شعب على شيء من التمدن حتى ولو كان نظامه الانتاجي ينهض على نظام راس المال الذي يستغله صاحبه في الكسب من العمال . ويضرب لنا مثلا بحال بريطانيا حوالي ١٩١٠ اي قبل ٤٧ سنة فيقول ان الدولة البريطانية تأخذ بالنظام الاشتراكي في ايجاد الطرق وصيانتها . وكذلك الجسور عبر الانهار والوهدات بين الجبال ، بل كذلك صيانة المدن بالكنس والتنظيف اليوميين ، والاضاءة العامة ، والحماية البوليسية ، والدفاع المدني والحربي ، والعناية بالمتاحف والمكتبات ، والحدائق العامة ، والميادين والحمامات ، كل هذه تقوم به الدولة اما بذاتها مباشرة واما عن طريق مجالسها البلدية

هذه الاعمال اشتراكية من حيث ان الدولة تقوم وتنفق عليها لمصلحة الشعب كله . ويسأل برنارد شو : لماذا تبني الدولة المتاحف والمكتبات ولا تبني المنازل ؟

ويذكرنا برنارد شو بما كنا نعرفه ولكننا لا نحسن التعبير عنه وهو ان ترك بناء المنازل للنشاط الحر ، اي للمباراة الفردية في الكسب ، يحمل الاثرياء على ان يبنوا المباني للكسب والاستغلال وليس للخدمة والمنفعة العامة . بل هو يزيد على ذلك ، بما نعرفه ايضا ، وهو ان بناء المساكن الحقيرة للفقراء بمواد هزيلة يعود بربح اكبر على اصحابها من بناء القصور والمساكن الحسنة .

ويؤلف هـ.ج. ويلز أول مؤلفاته عن الاشتراكية في كتاب بعنوان « عوالم جديدة للقدامى » . والقدامى هنا هم المعاصرون الجاهلون . ويدعو الى الاشتراكية لانها استخدام العلم في الانتاج ، هذا العلم الذي يحتاج احيانا الى تجارب أولية تبلغ نفقاتها ملايين الجنيهات كما قد رأينا في تجارب الذرة . وان يكن هذا المثل شاذا مسرفا في شذوذه ولكن هذا الاسراف في الشذوذ سيؤدي الى اسراف في الانتاج لا عهد للبشر به من قبل في التاريخ الماضي . وهذا بالطبع مع الذكرى المؤلمة للقنبلتين الذرية والهيدروجينية.

ولكن عالما واحدا وامة واحدة ودولة واحدة على الارض مع استبعاد عوامل الشقاق والبغض يزيل الخطر من العلم. وهو خطر احس به ويلز في السنة الاخيرة حتى كاد يؤثر الموت على الحياة

لكل من برناردشو وهـ.ج. ويلز طوبى .

والطوبى هي الحال الخيالية المثلى التي نحلم بها ونرسمها على المستقبل كي ننقل مغزاها الى القراء في الوقت الحاضر. كيف تكون الحكومة بعد الف او عشرين الف سنة ؟ كيف يكون التعليم ؟ كيف يكون الزواج ؟ الى اي مدى تبلغ قوة العلم ؟ هل يمكن ان نخترع طعاما نباتيا يغنينا الغنى الكامل عن قتل الحيوان وأكله ؟ الخ

وهنا نقف لنقول ان الرجعي الذي يتقيد بالتقاليد وبالمذاهب ويربط نفسه بالماضي لا يمكنه ان يفكر في « طوبى » . لانه يكره التغير والتطور . وقصارى ما يتخيله تشسترتون وبيلوك من السعادة للانسان هو ان يعم المذهب الكاثوليكي ٢٦٠٠ مليون انسان هم جميع السكان على كوكبنا . يذهبون كل يوم الى الكنائس ويؤمنون بأسطورة آدم وحواء كما رسمتها التوراة وينكرون نظرية التطور . أي انهم يحلمون بدنيا واحدة يسيطر عليها عرش البابا في رومة

هو حلم بال قديم يطلى بطلاء جديد .

ولكن ويلز وشو الاشتراكيين قد رسم كل منهما طوباه على اسس العلم ونظم الاشتراكية . فبرنارد شو يحدثنا عن الانسان يعمر ٥٠٠ او الف سنة ، وعن المرأة الحكيمة التي تمتاز بالرأس الضخم والتفكير الناضج والتي نعد نحن ازاءها اطفالا . وعن السبرمان الذي سوف ينشأ من صلب الانسان بالاختيار المدبر بحيث تكون ميزاته ازاءنا بمقدار ما نمتاز نحن من القردة . الخ

تفكير علمي اساسه نظرية التطور . او ديانة التطور

وكذلك ويلز . ولكن ويلز لا يضرب في افاق المستقبل البعيدة وانما يطلب الغد قبل بعدالغد. ومن هنا اعتماده على « عصبة الامم » في التفكير في الغاء الفروق والثقافات بين الشعوب وايجاد عالم واحد ودولة واحدة .

وانما ذكرنا اثنين من الرجعيين ازاء اثنين من الاشتراكيين لاننا نحس ان في المقارنة رمزا لحالنا في مصر والاقطار العربية التي لا استطيع ان أجد فيها في الوقت الحاضر سوى واحد او اثنين من الاشتراكيين الناضجين ازاء كل مليون من الرجعيين .

القاهرة — **سلامه موسى**

قضايا الفكر المعاصر

سلسلة كتب تتناول اهم القضايا الفكرية التي تشغل المثقفين اليوم ، مع دراسة وافية لاعلامها وممثليها العالميين

صدر منها

١ ـ سارتر والوجودية

تاليف ر.م. البيريس ترجمة الدكتور سهيل ادريس

٢ ـ كامو والتمرد

تاليف روبير دولوبيه ترجمة الدكتور سهيل ادريس

تطلب من دار العلم للملايين
ودار الآداب ـ بيروت